



52

العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الثالث عشر

الوحدة والصراع

1. مفهوم الوحدة العربية

لاحظ العديد من مراقبي الوضع العربي الحالي حالة من التناقض ما بين التأكيد المتكرر على الوحدة العربية وبين الصراعات المستمرة التي تميز العلاقات العربية-العربية. إن مفهوم الوحدة يرد بصراحة في دساتير عدة دول عربية كسورية والعراق والكويت واليمن ومصر وليبيا وتونس والجزائر. وكل من هذه الدساتير يعلن أن دولته جزءاً من «الأمة العربية» أو «الوطن العربي» أو «الأسرة العربية» أو «العالم العربي». ويمكن سماع هذا الإعلان مكرراً بالتشديد عليه بإصرار روتيني على ألسنة قادة الدول العربية في خطاباتهم وكتاباتهم ملخصاً ضمن مصطلح «القومية العربية» التي تعني دوماً الوحدة القومية لكافة العرب. ويميل الكثير من الكتاب العرب إلى اعتبار أن الدول العربية ما هي إلا أجزاء من «أرض الآباء والأجداد».

إن مفهوم الوحدة القومية لكافة العرب مفهوم حديث جداً؛ إذ كان الرأي العام العربي ملتفاً حول المحور الإسلامي طوال التاريخ، وهو محور يعتبر المسلمين أمة واحدة. ومع وجود دول متعددة ضمن نطاق الإسلام على مدى قرون، لم تعترف الشريعة الإسلامية إلا بكيان إسلامي واحد لا يتجزأ: «أمة محمد». وهذا المفهوم يرد بصراحة في القول الشائع القديم: «لا أمة في الإسلام». وله جزء يكمله بذات النظرة الأحادية للعالم غير الإسلامي: «الكفر ملة واحدة». وهو يعني أن جميع البشر من غير المسلمين يشكلون كياناً يمكن اعتباره وحدة أممية واحدة. ويتم التصريح بهذا التعارض بين هذين القسمين الكبيرين من العالم بشكل أكثر صراحة في المقارنة بين مصطلحي «دار الإسلام» و«دار الحرب» اللذين وقفاً بمواجهة بعضهما منذ تأسيس الإسلام.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

في العديد من مقالات الصحف والمنشورات والكراريس تجد الوحدة الإسلامية تشكل الموضوع الأساسي. ولنأخذ مثالا على ذلك كراس محمد أبوزهرة الذي حمل عنوان (الوحدة الإسلامية). وفيه يحاجج أبوزهرة بأن المسلمين أمة واحدة. تربطهم رابطة الدين والعقيدة والعبادة والأخلاق الإسلامية. ولذلك يجب عليهم أن يناضلوا لتوحيد بلدانهم في رابطة الأمم الإسلامية أو أي اتحاد إسلامي. كما رسم خطوطا عاما للمبادئ التي ينبغي على كل عضو في هذا الاتحاد أن يلتزم بها: وهي أن علاقة الأخوة التي تربط المسلمين تفرض عليهم أن يحلوا صراعاتهم كافة بشكل داخلي. وأن العدوان على أي فرد أو دولة مسلمة هو عدوان على المسلمين جميعا. وأن جميع الدول المسلمة عليها أن تتكاتف في القتال لتحرير أخواتها اللواتي يرزحن تحت نير أعداء الإسلام. وأن المسلمين لا يحكمهم إلا المسلمون. وأخيرا: كل تخطيط أو نشاط اقتصادي أو مالي أو تجاري في الدول الإسلامية يجب أن يقوم به المسلمون حصرا.

ويتفق الكثير من المفكرين العرب المعاصرين مع وجهة النظر هذه. فعلى سبيل المثال: يشكك الكاتب اللبناني فتحي يكن في كراس يحمل عنوان (رسالة القومية العربية) بالأسس التي تقوم عليها فكرة القومية العربية. وهي: اللغة والتاريخ والعرف والمصير والشعور.... ويحتج بأن الدين الإسلامي يمثل الأساس الجوهرية لهذه القومية. وأن التلازم ما بين الدين والسياسة يوجب أن تكون رسالة القومية العربية منصبة على تحرير وتوحيد نصف مليار مسلم في دولة واحدة تتأسس على تعاليم ومبادئ الإسلام.

وبالرغم من ذلك. أدى تأثير موجة التغريب إلى أن تحوز فكرة الأمة العربية بشكل تدريجي على القبول لدى الجيل الشاب من المثقفين العرب. حيث لم يبدأ مفهوم الكيان السياسي للأمة. بما له من اختلاف عن التجمع الموحد برابطة الدين الإسلامي. ينتشر في الدول العربية إلا في القرن العشرين. وتم ذلك تحت تأثير أوروبي. ومن أجل التعبير عن فكرة (الانتماء العرقي) تمت صياغة كلمة عربية جديدة: (القومية). وهي مشتقة من (قوم) التي تعني: الشعب. الأتباع. المجموعة. القبيلة. وبالأخص: مجموعة الأقارب التي تنهض

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

لتقديم دعم متبادل في ما بينها. ونجد في محضر أعمال جلسة عقدت بين طلبه عرب في بروكسل عام 1938 مصطلح «قومية». والذي لم تمض على صياغته غير أعوام معدودة. معرفا بأنه «الإحساس بالضرورة الراهنة لتحرير وتوحيد سكان الأرض العربية على ضوء وحدة الوطن واللغة والثقافة والتاريخ. والحاجة إلى تطوير الأمور ذات الاهتمام المشترك. كما تم تعريف «الحركة العربية» بأنها «النهضة العربية الجديدة المستمرة دائما في الأمة العربية. والتي تحركها حوافز تاريخها المجيد، وحيويتها الفريدة. وحقوقها المشروعة في الحاضر والمستقبل».

طبقا لهذه التصريحات. تتأسس فكرة الوحدة العربية على عناصر مشتركة في الأرض واللغة والثقافة والتاريخ. وعلى عناصر مشتركة غير محددة تتعلق بالهموم والمصالح. وفي مقابل هذه العناصر الخمسة التي تعكس وجهة نظر التوجهات القومية. يميز المفكر الإسلامي اللبناني عبدالله العلايلي ستة مميزات يتأسس عليها «الشعور القومي» العربي: وهي: اللغة، المصالح المشتركة «ضمن الوطن العربي الكبير». البيئة الجغرافية ذات التأثير العظيم على «نفسية العرب ومزاجهم». ورابطة الدم، والتاريخ المشترك، والأزياء المتشابهة.¹

ولا يخرج تحليل العلايلي عن كتابات غيره من الكتاب العرب. ومن النادر أن نجد من يقدم طرحا جديدا يخرج بشكل جذري عن المسار العام؛ وبالرغم من ذلك، يمكننا أن نجد الكثير من التباينات في طرح موضوع الوحدة العربية. فمثلا نجد الكاتب اللبناني المسيحي نبيه أمين فارس ينتقد في كتابه (العرب الأحياء) تلك الأسس التي يرى كثيرون بأنها تكون قاعدة الوحدة العربية؛ إذ يرى فارس أن الوحدة القائمة على أساس عرقي ليست أساسا أصيلا للوحدة العربية. وذلك لأن الكثير من العرب. ومن بينهم ملوكهم، ذوو دماء مختلطة، بينما هم عرب «إلى النخاع بالنظر إلى اللغة والقوة الثقافية للتاريخ». كما يرى فارس أن الأساس الجغرافي غير ذي بال لأن الكثير من الأجانب عاشوا على الأرض العربية دون أن

(1) عبدالله العلايلي: دستور العرب القومي: ص 88-95.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

يصبحوا عربا. وينتقل فارس إلى نقض الأساس الديني الذي يرى أنه ليس أساسا للعروبة. وأنه لم يكن كذلك في يوم من الأيام. باعتبار أن الكثير من غير المسلمين كانوا عربا أقحاح وساهموا بشكل مهم في الثقافة العربية. ثم يطرح فارس رأيه الخاص حول موضوع الوحدة العربية. فيرى أن أسسها الراسخة تكمن في عنصرين اثنين: اللغة العربية. و«قوة التاريخ التكوينية». ويشرح فارس مفهوم «قوة التاريخ التكوينية». فيقول بأنها لا تحتوي الأحداث التاريخية فحسب. وإنما...

العادات، والتقاليد، والحكايات، والقصص، والأساطير، والعبر التي حركت في قلوب الناس مشاعر التسامح والأسى والسعادة والحزن، والتي أيقظت فيهم روح المبادرة ووضعتهم في المقدمة. إن هذه العناصر التعليمية التي عاشت عبر التاريخ يجب أن تتجه إلى تهيئة الأفراد كي يتحملوا، بوعي أو بدون وعي، مسؤولية هذا التاريخ. وأن يقوموا بتطويره.¹

بعد ذلك بسنوات قليلة ألف فارس كتابا آخر بالاشتراك مع محمد توفيق حسين. وهو كاتب عربي مسلم. وفي هذا الكتاب أشار الكاتبان إلى عاملين إضافيين قد يجعلان من العرب أمة واحدة بشكل تدريجي؛ وهما: الدين الواحد (الإسلام)، والنفسية الواحدة. وسنركز في السياق الحالي على العامل الأخير الذي سجل الكاتبان معناه بأن «العرب يختلفون بشكل طفيف في موقفهم من المشاكل المختلفة في الحياة، وفي استجاباتهم للمؤثرات الخارجية» ويدخل ضمن ذلك كرامة الفرد، والجهد الإنساني، والوقت، والنساء، والشرف، والرجولة، والولاء، والكرم، وحسن الضيافة، وحفظ حق الجار. ويشرح الكاتبان هذا التوافق من خلال الإشارة إلى التشابه في «الأسس الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي يستند إليها المجتمع العربي». ويضيفان بأن المجتمع العربي اتسم بكونه مجتمعا زراعيا منذ عصور موعلة في القدم. «وتنظمت فيه خلال تلك الفترة مستويات إقطاعية وقبلية ودينية». وكان الدين «بما فيه من إيمان، قبل كل شيء، بإله غير مرئي، واستسلام للقدر:

(1) نبيه أمين فارس: العرب الأحياء: ص102.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

مهيمننا على حياة العرب طيلة قرون». وكانت المدن تحوي ثلة قوية من «الإقطاعيين الذين يستغلون عمل الأغلبية». بينما كانت القبائل البدوية شبه الرعوية «تترك طابع نفسيتها القبلية الرعوية على السكان جميعهم». لقد كانت السلطات الحكومية دائما من النمط الملكي الذي ربما يجنح إلى استعمال القوة. أما الأدب العربي فدأب على أن يكون «مسكونا بالروح العظمى للإسلام». ولاحظ الكاتبان خاصية محددة في عقيدة المسلمين تميل بهم إلى «شل إرادة الإبداع لديهم، مما يقودهم إلى الحلم بأمجاد الماضي غير مدركين لمشاكلهم الراهنة الملحة».

يشوب الغموض الموقف الحقيقي للقوميين العرب من الدين كعامل توحيد للعالم العربي. فهم كانوا فخورين بشكل عام بالدور العربي في تقديم الإسلام للعالم وتحويله إلى دين يعتنقه سدس أو سبع سكان الأرض. ولم يكن لديهم شك في وجود عامل مشترك يوحد المسلمين فوافقوا على أن «لا أمم في الإسلام». ولكنهم في الوقت ذاته، وبتأثير من أفكار القومية التي استمدوها من الغرب، شعروا بأن الروابط التي توحد العرب أقوى من تلك التي تجمع العرب بغيرهم من الدول الإسلامية غير العربية. وإذا كانت «دار الإسلام» كيانا واحدا، فإن العالم العربي يمثل حرم هذه الدار. إن هذا الشعور بأولوية الوحدة العربية جلب شيئا من الاعتراض من جانب أنصار مبدأ الأمة الإسلامية الذين يعتقدون بأن الرابط الديني هو الرابط الأقوى والأقدس، وهو أمر كان القوميون العرب يعتبرونه مجرد أداة تاريخية أو دينية لعبت دورا ما في تشكيل الوحدة العربية. وبما أنهم قاموا وفق هذا الاعتقاد بالحث من منزلة الإسلام إلى منزلة ثانوية من أسس الوحدة العربية. يبدو أنهم شعروا بالحاجة إلى إضافة أسس أخرى تتجاوز وتعلو على أسس اللغة والتاريخ المشترك.

وفقا لدعاة القومية العربية، تتكون هذه القومية من مجموعة العرب الناطقين باللغة العربية، والذين يقطنون رقعة شاسعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وتتميز بالكثير من الصفات الجغرافية المتشابهة. أما العرب فهم «عرق شاب يرجع أصله إلى الانصهار المتناغم للعديد من السلالات البشرية التي جمعها الإسلام في بوتقة واحدة».

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

وأدى هذا المزيج إلى تشابه شديد في المواهب الفكرية والأخلاقية بالرغم من بقاء مجموعة متنوعة من الصفات الجسمانية للأعراق الأصلية. إن هذا «العرق» العربي لا يعترف بالتمييز على أساس اللون. وهو شديد «التنوع والشجاعة والحماس والصبر والتحمل ويقوده حس العدالة». وتعتبر لغة هذا العرق، العربية، متفوقة على غيرها، وتمنح العرب إمكانية لعب دور حضاري عظيم. أما الإسلام، وهو يكاد يكون دين العرب كافة، فهو يمنح العروبة مساحة من القيم الروحية تجعلها تواجه المادية الغربية. وسواء أكانت هنالك تقسيمات داخلية ضمن العرب، كالقبائل والمذاهب، فهي ليست غير نتيجة للجهل أو التدخلات الخارجية.¹ وثمة عناصر أخرى للقومية العربية تأتي من الادعاء بأن الميزات المذهلة للحضارة الغربية ما هي في الأصل إلا إسهامات من العرب أو المسلمين. ومنها ما يأتي من «الشعور الخاص بكون العرب شعباً مختاراً» بما لهذا الشعب من موقع مركزي في الإسلام.²

يعتقد بعض المحللين العرب أن العناصر السابقة تشكل الخصائص الرئيسية التي تصنع القومية العربية. ويمكن أن يلاحظ المرء أن الوعي العربي مسكون بشعور ضبابي غير متبلور يؤمن بأن العرب شعب واحد. وأن الأيام لن تطول عليهم حتى يتحقق ذلك على صعيد الواقع. أما القادة السياسيون فيجدون من الأنفع لهم أن يعيدوا التأكيد على التزامهم بالوحدة العربية في كل مناسبة، وبالأخص عندما يكونون في خضم صراع أو خصومة مع دولة عربية أخرى. وإذا أردنا الكلام على مستوى الشارع العربي، نجد أنه لا يعرف الكثير عن العلاقات العربية-العربية. لكن كلمة «العرب» تكاد تملك قوة سحرية تستحوذ عليه، فتصبح الأنباء الواردة عن تعرض العرب لمحنة ما، مهما بعدت المسافة، كفيلة بتحريضه بسهولة على إبداء مظاهر عنيفة تعبر عن تضامنه. ولا يحتاج العربي إلى إثبات لمفهوم الأخوة العربية، فهي عنده حقيقة لا جدال فيها، وتشكل ركناً من العقيدة، لذلك لا تحتاج إلى البرهان ولا يمكن إنكارها أو التشكيك بها، شأنها شأن الأركان الأخرى. وذلك

(1) عبدالرحمان عزام: مقالة في صحيفة (العرب) الصادرة في القدس (27-8-1932).

(2) فون غرونباوم (Von Grunebaum): الإسلام الحديث: ص 285.

الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

على الرغم من وجود أمثلة محددة لحالات من التفرقة. والحروب الأخوية. أو أي مظهر آخر من مظاهر الشقاق والنزاع والخصام.